١ – العلاَّمة الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح

حياةٌ عامرةٌ بوهج ثقافيٍّ أخَّاذٍ وإشعاعٍ معرفيٍّ ساطع ووضوحِ فهمٍ اجتماعيٍّ بَنَّاء

بقلم : الأستاذ الدكتوروجيهفانوس
(رئيس المركزالثقافي الإسلامي)
wajihfanous@hotmail.com

كان الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح، مثقَّفاً فذَّاً في معارف عصره العامَّة، وعالِماً مُجَلَّاً في ميادين اللُّغة والفقه والحضارة، وناشطاً وطنيَّاً في ساحات الإسلام والعروبة؛ وُلِدَ في لبنان، وانطلق منه إلى أرجاء واسعة من آفاق العالمين العربي والإسلامي. وكان في كلِّ وجوده من أهل التَّجديد الفكريِّ النَّهضوي، وروَّاد الابداع الاجتماعي المغني لناس بيئته والرَّائي إلى تطوير في عيشهم لحياتهم،كما كان ممَّن صانوا العربيَّة واجتهدوا في عصرنتها، ومن أهل الدعوة المثابرة على البحث في جوهر الحقائق المعرفيَّة دينياً وحضارِيَّاً وطنياً، على أسس الحوار المتسلِّح بالمجادلة بالتي هي أحسن وحسن الجوار وجمال العِشرة.

وُلِدَ "صُبحي بن إبراهيم الصَّالِح"، في لبنان، في بلدة "الميناء"، المجاورة لمدينة "طرابلس" (الشَّام الفيحاء)، لعائلة تتحدَّر من أصول تركيَّة، سنة ١٩٢٦. وكان له أن يتلقَّى، في يناعة طفولته، العلوم المدرسيَّة الابتدائيَّة، في بلدة "الميناء"؛ حيث تسنَّى له، كذلك، حضور جلسات الشَّرح الدِّيني في بعض مساجد البلدة، الأمر الذي كوَّن في وجدانه طموحاً بأن يكون خطيباً في المسجد وعالم دين في أفياء الوجود الإسلامي. وكان لما أمكنه من غرف من فيوضات بعض ما وجده في مكتبات البلدة، العامَّة منها كما الخاصَّة، زاداً معرفيَّاً مميزاً؛ ما شكَّل له دافعاً للبحث عن مزيد من روافد العلم والمعرفة. وكان لـ"الفتى" صُبحي الصَّالِح، في سنة ١٩٣٨، وقد بلغ الثامنة من سني العمر، أن يلتحق بـ"دار التَّربية" في مدينة

طرابلس، لتحصيل دراسته في المرحلة الثانوية؛ وأن يبدأ، على صغر سنه، بعض الخَطابة من على منابر المساجد في المدينة.

سافر "الشَّاب" صُبحي الصَّالِح، وهو في السابعة عشرة من سني العمر، في ١٩٤٣م، إلى القاهرة لمتابعة دراسته في رحاب "الأزهر الشريف"؛ وحصَّل، وهو في الحادية والعشرين من عمره، سنة ١٩٤٧م، الشهادة العاليَّة من "كلية أصول الدين" في "الأزهر الشَّريف". انتسب "الشيخ" صُبحي الصَّالِح، إبَّان دراسته في "الأزهر الشَّريف"، إلى "كلية الآداب" في "جامعة فؤاد الأوَّل" (جامعة القاهرة، لاحقاً)؛ فنال "الشهادة العالمية" من"الأزهر" سنة ١٩٤٩م، و"الإجازة" في الأدب العربي من "جامعة فؤاد الأوَّل" سنة ١٩٥٠م. أنتقل، بعد هذا، "الشيخ" صُبحي الصَّالِح سنة ١٩٥٤م. إلى باريس، في فرنسا، حيث التحق بـ"جامعة السُّوربون"؛ ونال في سنة ١٩٥٤م. شهادة "دكتوراة دولة" في الآداب من تلك الجامعة، ببحث في موضوع "الدار الآخرة في القرآن الكريم" و"الإسلام وتحديات العصر".

لم يكن، الدكتور الشيخ الصَّالِح، خلال سنس إقامته في فرنسا، وتحديداً في عاصمتها باريس،بعيداً عن مجالات الوجود الإسلامي في أبعادها الثقافيَّة والمعرفيَّة؛ إذ أسَّس، في باريس، مع الباحث الاسلامي محمد حميد الله الحيدر أبادي، أول مركز ثقافي إسلامي في العاصمة الفرنسيَّة؛ كا أنه طالما كان له أن يؤمُّ "صلاة الجمعة" ويقدم لتلك الصَّلاة، في "جامع باريس"، ويعمل على تعليم اللغة العربية للأفارقة المسلمين، ويحاضر في الأندية الثقافية الباريسية، مقدِّماً في كلِّ هذا نمطاً طيِّباً في التَّعريف بالإسلام، الأمر الذي نال إعجاب الفرنسيين وزاد من ألفة قسم من المجتمع الفرنسي مع الدكتور الشَّيخ الصَّالِح.

تقلَّد "الدكتور الشَّيخ" صُبحي الصَّالِح مناصب أكَّاديميَّة عديدة ذات رفعة ومكانة؛ إذ عمل في التَّدريس الجامعي في "العراق"، في "جامعة بغداد" منذ سنة ١٩٥٤م. ، ثم في "سوريا"، في "جامعة دمشق" سنة ١٩٥٦م.؛ وأصبح أستاذًا للإسلاميات وفقه اللغة العربية في "جامعة بيروت العربية" سنة ١٩٦٣م.، في "لبنان"، وتولَّى، في "الأردن"، رئاسة "قسم أصول الدين" في "الجامعة الأردنية" سنة ١٩٧١م.، وعُيِّن رئيسا

لقسم اللغة العربية وآدابها في "الجامعة اللبنانية" في "لبنان" سنة ١٩٧٥م.، ثمَّ مديرا لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة عينها سنة ١٩٧٧م..

حاضر، الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح، بصفة "أستاذ زائر"، في عدد من الجامعات العربية منها "جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية"، في الرِّياض، في "السعوديَّة"، وفي "الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين"، في "الجامعة التونسية"، في "تونس"؛ كما سمي مشرفاً على أطروحات الدكتوراه في الدراسات الحضارية واللغوية والإسلامية في "جامعة ليون الثالثة" وفي "جامعة باريس الثانية" (جامعة الحقوق والعلوم الاقتصادية والاجتماعية)، في "فرنسا". ولقد انتسب، كذلك، إلى عديد من المجامع العلميَّة والمعاهد والمؤسسات والأكاديميات؛ إذ كان عضواً في "مجمع اللغة العربية في القاهرة"، وعضو "أكاديمية المملكة المغربية"، و"المجمع العلمي العراقي في بغداد"، و"لجنة الاشراف العليا على الموسوعة العربية الكبرى". وتولى الدكتور الشيخ الصَّالِح، أيضاً، عدداً من المناصب، فكان نائب رئيس "المجلس الإسلامي الأعلى: في دار الفتوى في الجمهورية اللبنانيَّة، و"رئيس اللجنة العليا للقرن الخامس عشر الهجري في لبنان" و"الأمين العام لرابطة علماء لبنان".

خاض الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح، باحثاً ومدرِّساً ومحاضراً ومناقشاً، في كثير من مجالات العلوم الفقهيَّة واللغوية والحضاريَّة؛ وكانت له مشاركاته الفذَّة في تحقيق كثير من أمَّات الكتب التراثية وشرحها ودراستها: كما كتب باللغة الفرنسية، وترجم منها، وأشرف على تعريب عدد من المؤلفات والبحوث، وظل على امتداد أكثر من نصف قرن يزود كبرى المجلات الاسلامية والفكرية والعلمية بمئات البحوث والدراسات في مجالات معرفيَّة إنسانيَّة عديدة، وكانت له مساهمات طيبة في موسوعات عربية وعالمية طالما استكتبه.

أصدر العلامة الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح أكثر من عشرين مؤلَّفاً في موضوعات شملت مناهج الفكر الإسلامي واللغة العربيَّة وبعض العقائد السياسيَّة السياسية والاجتماعية؛ كما أنه كتب وحاضر وناقش في توجُّهات للفهم الديني الإسلامي ورؤى تنطلق منها لبعض القضايا الحضاريَّة.

عاش العلاَّمة الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح داعية وحدة بين المسلمين، ففي مقدّمة تحقيق "نهج البلاغة" ناشد المسلمين جميعاً إلى الانضواء تحت راية التوحيد، كما حضَّ المؤرّخين على كشف الحقائق، لا انتصاراً لفريق على فريق، بل دعوة خيّرة إلى تناسي المآسي الداميات. وطالب الدكتو ر الشيخ الصَّالِح باحترام حق الحياة، ورفع العدوان والظلم عن الإنسان، وضرورة كفّ الجاني بالقصاص ؛ مسيراً إلى أنَّ العدوان على حياة فرد واحد في نظر الإسلام عدوان على كل إنسان حي، وكف الجاني بالقصاص عن قتل

حياة واحدة، هو في الواقع كفه عن إزهاق الحياة كلها في أشمل معاني الحياة، وأوسعها مدلولاً، وأكثرها تفصيلاً، فما القصاص إلا حياة لأنه الحياة، وفي سبيل الحياة.

من الإنصاف، ههنا، الإشارة ولو بإيجاز وإلماح فقط، إلى باقة من آراء للدكتور الشيخ الصَّالِح؛ تشرقُ من تثنايا مؤلفاته ومقالاته وخطبه وأحاديثه؛ ولعلَّ من أبرز هذه الآراء قوله "أن لا شيء يجعل جوهر الإسلام يتعارض مع التطوّر والتقدّم، وأن السياسة بالنسبة إلينا ليست سوى أفضل وسيلة لتنظيم الدولة"؛ وكذلك اعتقاده الراسخ بأنه "لا بدّ من الاعتراف بأن المجتمع الإسلامي، الذي رسمت خطوطه الأولى في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، لم يجد تحقيقه الملموس في الفترة المعاصرة، لنميّز سلفاً تمييزاً واضحاً بين العقيدة الإسلاميّة وتطبيقها في بعض البلدان الإسلاميَّة"؛ وكذلك دعوته الرائعة إلى فتح باب الاجتهاد إذ "حاجة الأمّة إلى الاجتهاد بديهيّة، لم تكن في نظر القدامى تقبل الجدل، حتى تحتمل التأجيل عند المعاصرين، وأن المحقّقين من علمائنا شاركوا في مقاومة التقليد، وفي دعوة الناس إلى الاجتهاد، وإن كانوا لم يفتحوا بابه على مصراعيه، إلا للقادرين عليه"؛ وأنَّه "لكي نتحوّل بالاجتهاد من الصيغة الشكليّة إلى جهاز حي دائم التحرك، أن نضيف إلى هذا كلّه شرط الإلمام الكافي بلغة حيّة على الأقل إلى جانب لغتنا، نطل من نافذتها على ثقافة عصرنا بواسطتها، وكل مسألة طارئة في ضوء العلوم المتعلّقة بها". ولا يمكن، في هذا المجال، التغاضي عن قوله "إن ذهنيّة التخلّف، ومصالح المستفيدين من واقعنا المريض، عقبة في وضع صيغة اقتصاديّة متكاملة خالية من الربا يمكن أن تضعها نخبة من فقهائنا وأهل الاختصاص فينا. وتبنّى اجتهاد من رأى من العلماء، إباحة صناديق التوفير، وشهادات الاستثمار – على تفاوت – في بابي المضاربة والقرض الإسلاميّين، بعد إجراء تعديل جزئي على صياغة بعض القواعد الفكريّة والشروط الاحترازيّة الاجتهاديّة". وقد طالب الدكتور الشيخ الصَّالِح، في ما طالب به، "احترام حق الحياة، ورفع العدوان والظلم عن الإنسان، وضرورة كفّ الجاني بالقصاص قائلاً: العدوان على حياة فرد واحد في نظر الإسلام عدوان على كل إنسان حي، وكف الجاني بالقصاص عن قتل حياة واحدة، هو في الواقع كفه عن إزهاق الحياة كلها في أشمل معاني الحياة، وأوسعها مدلولاً، وأكثرها تفصيلاً، فما القصاص إلا حياة لأنه الحياة، وفي سبيل الحياة".

منحت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في سنة ١٩٨٦م.، جائزتها للدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح، عن كتابه "التفكير الاجتهادي في الإسلام"، وبعدها بشهور وتحديدًا في ٧ أكتوبر ١٩٨٦م، تمّ اغتياله على أيدي مسلّحين في بيروت.

كان الاقتتال الأهلي في لبنان، سنة ١٩٨٦م.، قد صار في سنته العاشرة، وكانت الحياة في لبنان تضجُّ بعنف دماء تهرق بإسرافٍ مرعبٍ بين فصائل ومجموعات فلسطينية ولبنانية، انغمست فيها أيدٍ لمسلمين

وأخرى لمسيحيين، في خضم احتلال إسرائيلي ووجودٍ سوري وحضورٍ غربي. في ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥م، عُقِد "الاتفاق الثلاثي" بين الميليشيات (القوات اللبنانية المسيحية – حركة أمل الشيعية – الحركة الوطنية اللبنانية الدرزية)، لتسلّم الأمن في بيروت بديلا من سُلطة رئيس الجمهوريَّة. وإزاء هذا الاتفاق تنامت حركة شعبية رافضة له، ومنادية بإضراب عام ومفتوح، أدّى إلى إحداث عُزلة تدريجية للمليشيات بكافة انتماءاتها ومصالحها. كان الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح، واحدًا من الوجوه البارزة باحترام وتقدير بين جميع اللبنانيين، وكانت دعوته أبداً الحفاظ على سلامة لبنان ووحدته مع التأكيد على حق الوجود الفلسطيني في العيش الكريم والمقاومة ضد العدو الصهيوني الغاصب. وكان، كما انتشر بين بعض القوم، أن ثمَّة من وضع قائمة اغتيالات لبعض أبرز قادة الرأي والفكر والمحرّكين لها،؛ ووصلت بعض التَّهديدات إلى مسامع الدكتور الشيخ الصَّالِح، غير أنَّه لم يعرها اهتماماً عمليَّاً على الإطلاق.

قام مسلّحان ملثمان يمتطيان دراجة بخارية، صباح يوم الثلاثاء الواقع فيه السابع من تشرين الأول سنة ١٩٨٦، باغتيال العلامة الدكتور الشَّيخ صُبحي الصَّالِح، لحظة وصوله إلى مقر جمعيّة لتعليم الأولاَّد، في منطقة "ساقية الجنزير" من مدينة بيروت، كان يشرف عليها.

انتقل "صبحي بن ابراهيم الصَّالِح"، بيد الغدر، إلى رحمة ربّه؛ شهيداً، محمولاً بأكفان العلم والمعرفة والثقافة، على أَكُفِّ البذل والعطاء وسماحة الدِّين ورحابة الإنسانيَّة. ولقد أحدث خبر اغتياله، البربري والمفجع، حالاُ من الحزن الشَّعبيّ والرسمي الأكاديمي والثقافي الشَّامل؛ الأمر الذي اضطر أهل الفئات المتقاتلة، في ما بينها، والغارقة، جميعها، في دماء أبناء الوطن، إلى تتوقَّف يوم انتقال جثمان "العالِم الشَّهيد"، من "بيروت" إلى بلدته "الميناء"، عن أي اقتتال؛ فوقفوا جميعهم منكسوا الرؤوس عند جوانب الطُّرق التي عبرها موكب الجثمان!

بعض مؤلفات الدكتور الشيخ صبحي الصالح: